حول الترجمة

حدودها وتقنياتها

محمد الولي

نتميز، نحن الآدميِّين، بملكة اكتساب "كفاءة" التعدد اللغوي؛ ولذلك فنحن قادرون على الترجمة من لغةٍ إلى أخرى(1).

يقال إن اللغة أداة تواصل؛ والحقيقة أنها تكون كذلك بالنسبة إلى من يتحدثون اللغة نفسها؛ وهي تكون مانعة للتواصل حينما يتكلم متحدثان لغتين مختلفتين. الترجمة محاولة لتخطِّي هذا الجدار اللغوي المانع للتواصل. وهي، بالإضافة إلى ذلك، محاولة لسد النقص في أية لغة على حدة. إن أية لغة ومهما علا كعبها في العلم والفلسفة والفن، تشكو من نقص ما. لا وجود للغةٍ كاملةٍ. الترجمة "حيلة" لغوية لسد هذا النقص. وإذا كانت كل لغةٍ على حدة تقدّم بدرجات متباينة صورة معينة للعالم، "وقراءة خاصة للحياة، فإن التنقل بين اللغات، أي الترجمة، حتى حينما يتمُّ ذلك بدون امتلاك حرية التنقل عبرها جميعاً، يعادل إحساس التُّوق شبه المحيِّر للذهن الإنساني إلى الحرية"(2).

الترجمة تقوم بعمل تعويض، وذلك في حدود ما تحمل إلى النص الأصلي الأمل في الحياة وفضاءً جغرافياً وثقافياً حيث يستطيع تأمين البقاء، وهو الفضاء الذي قد يفتقده بدونها [...] وبتأمل ماهية الثقافة الحديثة، فإن الآثار الكلاسيكية اليونانية واللاتينية مدينة للمترجم في نجاتها من النسيان [...] قد يحدث، على سبيل المفارقة، أن يُزِيحَ المترجم الحجاب عن قامة أثر قد كان موضوعَ زِرايةٍ في صورته الأصلية أو موضوع تجاهل: لم يدخل فُولكْنِيرْ إلى الوعي الأمريكي إلا بعد ترجمته إلى الفرنسية وفوزه بتنويه النقد الفرنسي"(3). وبعد، فما الترجمة؟

يقول جَانْ رُونِي لَادْمِيرَالْ: "الترجمة تسعى إلى نقل رسالة من لغة منطلق أو لغة مصدر إلى لغة وصول أو لغة هدف"(4). بمعنى أننا نعمل بالترجمة على نقل معنى أو رسالة من لغة مصدر إلى لغة هدف. يشدد هذا التحديد على مجرد الاحتفاظ بالمعنى دون مراعاة للعناصر الأخرى. بل ودون تحديد المقصود بالمعنى. وهذه الثغرة في التحديد هي التي يتفاداها التعريف التالي للترجمة. يقول أُوجِينْ نَايْظَا:

"الترجمة هي إعادة إنتاج في اللغة المضيفة لرسالة في اللغة المصدر بواسطة أقربِ معادل وأكثرِه طبيعية، أولا فيما يعود إلى المعنى، وثانياً فيما يعود إلى الأسلوب"(5).

يمكن أن نعمد إلى شرح هذه العبارة بالقول: الترجمة هي أن نعبر في لغة ما مترجم إليها عن نفس الرسالة في لغة مترجمٍ عنها، وذلك مع الاحتفاظ بشيئين اثنين وهما المعنى أولاً، والأسلوب ثانياً. وإذا كان المعنى في نوع معين من النصوص ينقاد للمترجم، فإن الملامح الأسلوبية لا تتمتع بهذه الامتثالية والسهولة في الترجمة، خاصة تلك المتعلقة بالملامح اللفظية أو الدالية، من قبيل الهياكل العروضية والقفوية والإيقاعية والجناسية والتطريزية والتوازي، الخ.

فلنسلم مؤقتاً بسلامة هذا التحديد الذي يذهب إلى أن الترجمة هي تعبير أو نقل لمعنى من لغة إلى أخرى. لا شك أننا قد تعودنا منذ صغرنا على التمارين التي كنا ننجزها في الأقسام الدراسية الأولى والتي نعرفها بشرح النص أو نثر القصيدة. إننا نحاول من خلال الشرح الاحتفاظ، ما أمكننا ذلك، بالمعنى، كما نحاول أيضاً إهمال كل المقومات الأدبية، التي نعتبرها مجرد عناصر غير حاملة لمعنى. وهذا التصور يدل على قصور مثير في فهم المعنى والأدبية معاً. إلا أن هذا لا يهمنا الآن. إن الشيء الذي يجعلنا نطلق على هذه العملية **الشرح** paraphrase وليس **الترجمة** هو أن العملية تتم داخل اللغة نفسها. إننا نشرح نصاً في اللغة الفرنسية بنفس اللغة. هنا نحرص على الاحتفاظ بتمام المعنى بدون زيادة أو نقصان. لأننا بإقدامنا على الزيادة أو النقصان يمكن أن ندخل إلى ميادين **التفسير** explication أو **التأويل** interprétation.

فلنحتفظ بهذين المفهومين الشرح والترجمة، ولنترك جانباً مؤقتاً التفسير والتأويل. الشرح عملية نقل المعنى من حال إلى حال داخل نفس اللغة. والترجمة هي نقل للمعنى من لغة إلى أخرى. ولهذا النقل جانب آخر وهو أن ننقل من نظام دال إلى نظام دال مغاير. إن حكايات **كليلة ودمنة** يمكن أن نقرأها كنص يعتمد النظام اللغوي، ولكن يمكن أيضاً أن تصاغ في شريط رسوم متحركة. وكلنا نتذكر أشرطة شَارْلِي شَابْلَانْ الصامتة التي نقوم جميعنا لحظة تلقيها عبارات لغوية. ولا نعرف لهذه العملية اسماً خاصاً في اللغة العربية. نشدد هنا على أمر واحد وهو أننا هنا أيضاً بصدد نقل المعنى إلا أنه نقل لا يتم داخل نفس اللغة ولا يتم بين لغتين ولكنه يتم بين نظام لغوي ونظام غير لغوي، أو العكس.

وعلى الرغم من حرصنا على استعمال مصطلح **الترجمة** للدلالة على هذا النقل الذي يتم بين لغة ولغة أخرى مختلفة والاحتفاظ للنقل الذي يتم داخل نفس اللغة بمصطلح **الشرح** ويمكن أن نتبنى

مؤقتاً مصطلح **التحويل** التي يتم بواسطته النقل من نظام إشاري إلى آخر. بهذا يمكن تفادي الغموض المصطلحي الذي يبعثه اقتراح رُومَانْ يَاكُبْسُونْ حيث يقول:

"إننا نميز ثلاث طرق لتأويل دليل لغوي ما، وذلك إما أن يترجم بدلائل أخرى من نفس اللغة، أو بترجمته إلى لغة أخرى أو بترجمته إلى نسق من الرموز غير اللغوية. ينبغي لهذه الأشكال الثلاثة من الترجمة أن توضع لها تسميات مختلفة:

ا. الترجمة داخل اللغة أو **إعادة الصياغة** reformulation وتدل على تأويل الدلائل اللغوية بواسطة دلائل لغوية أخرى من نفس اللغة.

ب. الترجمة بين اللغوية أو **الترجمة** بمعناها الخاص traduction، وتكمن في تأويل الدلائل اللغوية بواسطة لغة أخرى.

ج. **الترجمة بين السيميائية أو التحويلية** transmutation وتختص بتأويل الدلائل اللغوية بواسطة أنساق دلائل أو دلائل غير لغوية"(6).

نهجر إذن هذا الالتباس المصطلحي ونحتفظ بما تم الاتفاق عليه وهو **الشرح والتحويل والترجمة**. ولا يمكن أن نتجاهل ضمن هذا التقديم التحديدي للترجمة غض الطرف عن ذلك التمييز الذائع بين الترجمة traduction **والترجمة الفورية** interprétation.

يميز الباحثون بين شكلين من الترجمة. تعتبر الأولى ممارسة شفوية من قبيل تلك التي يعتمدها رجال السياسة حينما يصطحبون معهم مترجماً لكي يسهل عليهم مسألة التواصل عند مخاطبتهم أندادهم ممن لا يفهمون لغة مخاطبهم (أو يتظاهرون، لأسباب سياسية، بعدم الفهم)، وذلك بترجمة أقوالهم من لغة إلى أخرى. المهم أن هذه الترجمة تتم في الغالب في المجالات الشفوية. تمكن الاستعانة بها في الاستنطاقات البوليسية وفي المحاكمات وفي مجال السياحة والمعاملات التجارية الخ. يدعى هذا الجنس من الترجمة **بالترجمة الفورية أو الشفوية أو العفوية**. وهي تختص في اللغات الغربية بتسمية interprétation . يجب هنا مرة أخرى التزام الحذر خلال استعمال هذا المصطلح المتعدد المعاني، لأنه يدل على **الترجمة الفورية** حيناً ويدل طوراً آخر على **التأويل** ويدل طوراً آخر على **أداء** دورٍ مسرحي أو مجرد **إلقاء** قصيدة.

على الرغم من أن بعض الباحثين يحصرون الترجمة الفورية في مجال التواصل الشفوي، فإن علماء آخرين يعممون هذا المصطلح لكي يدل على الترجمة التي تختص بترجمة نصوص شفوية أم غير

شفوية ينعدم فيها العمق الفكري أو الفلسفي أو الجمالي. فكأن الترجمة هنا تتخذ موضوعها من تلك النصوص التي تتصف بالسطحية الفكرية أو الجمالية، حيث الكلمات تقابل كلمات وحيث لا تكون مطلوبةً لا كفاءةُ المترجم ولا نباهةُ المتلقي. كأننا نقوم بعمليات استبدال عملة بأخرى. لا أشبِّه هذا إلا بعمل صرَّافِ العملاتِ. وهذا التصور يقصِرُ مصطلح ترجمة على تلك النصوص المتسمة بالعمق الفكري والجمالي وحيث المعنى لا يمكن إحكام الإمساك به إلا بضرب من الجهد والمكابدة التي يتحملها المترجم والمتلقي. بل الترجمة هنا تدفع اللغة المترجِمة دفعاً إلى تجشم عملية الترجمة التي لا تعود هنا عفوية ولا فورية. هنا أيضاً أشبه عمل المترجم بعملِ مفسِّر الأحلام، بل مؤوِّلها. وربما ارتبطت الترجمة هنا بالكتابة التي هي ممارسة ذات عمق خاص. يقول فْرِيدْرِيكْ شْلَايِيرْمَاخِيرْ:

"فلنقصر كلامنا على الترجمات من لغة أجنبية إلى لغتنا؛ هنا أيضاً نستطيع أن نميز بين مجالين مختلفين، لا يتميزان بطبيعة الحال بوضوح كامل، لأن هذا الوضوح نادر الحدوث، ولكن نقيم الآن حدوداً باهتة بعض الشيء، إلا أنها تتمتع بوضوح كاف إذا راعينا الطرفين المتقابلين. إن المترجم الفوري interprète، يمارس في الواقع، عمله في مجال الأعمال، والمترجم الحق يمارس عمله بالأساس في مجال العلم والفن.

[...]المجال العلمي تناسبه الكتابة، التي بفضلها تدوم هذه الآثار؛ النقل الشفوي لأثر علمي أو فني قد يكون غير مُجْد كما أنه مستحيل. وعلى العكس من ذلك، فإن الكتابة، بالنسبة إلى الأعمال، هي مجرد وسيلة ميكانيكية؛ إن التواصل الشفوي هو هنا أساسي، ولا ينبغي اعتبار أي تحويل كتابي هنا إلا بمثابة تسجيل لتحويل شفوي"(7).

هذان تصوران إذن للترجمة الفورية أو العفوية أو المباشرة. الأول يحصرها في المجالات التواصلية الشفوية المباشرة، والثاني يشمل بالإضافة إلى النصوص الشفوية الخطابات الكتابية التي يكون أثر الإبداع الفكري أو الفني فيها ضعيفاً(8).

نستطيع القول إن الفارق بين الترجمتين الفورية وغير الفورية يكمن بالأساس في كون الأولى، خلافاً للثانية، تتناول بالترجمة نصوصاً تمتاز بوضوح تام؛ الغاية من ورائها توصيل معنى متداولاً ومتعارفاً عليه عند الجميع؛ وهي نصوص لا تعبأ بالجانب الجمالي. وتبعاً لهذا فإن هذا الجنس من النصوص ينفر أشد النفور من التعدد الدلالي والإيحاء، حيث الكلمة تحتمل أكثر من معنى واحد. الترجمة الفورية هي عملية شبه آلية، حسب شْلَايِيرْمَاخِيرْ، إذ نكاد نجد دائماً مقابلَ الكلمة في اللغة المصدر كلمة من اللغة الهدف، وهكذا دواليك. "إن الترجمة في هذا المجال هي نشاط شبه آلي، يمكن أن

يقدم عليها أي شخص يتمتع بمعرفة متوسطة للغتين؛ إذا تفادى ما هو ظاهر الخطإ، هنا لا يكاد يلاحَظ فارقُ جودة ترجمات النصوص"(9).

إن النصوص التي تنقاد للترجمة الفورية هي تلك التي تتعالى عن العناية بالشكل. كأننا هنا في مواجهة كلام عار من كل المزينات الإبداعية، حيث المعاني معروضة أمامنا في كامل شفافيتها وتصريحها. وحيث الرسالة لا لبس فيها أمام المتكلم وأمام المخاطب. إن العبارة:

"لقد كانت رحلتي من فاس إلى الرباط شاقة" تمكن ترجمتها بكامل العفوية والسهولة والأمانة الكاملة من العربية إلى الفرنسية. وربما كانت هذه الترجمة هنا قريبة مما دعوناه سابقاً الترجمة الفورية. إلا أن الأمور تكون مختلفة تماماً مع مثال من النوع الآتي:

جَوابُ مسائِلِي أَلَهُ نَظيرٌ ولَا لكَ في سؤَالكَ لَا أَلَا لَا

وذلك بسبب هذا الحضور القوي لمقوم أدبي متمثِّلٍ في هذا التكرار الصوتي. إن النقل ممكن هنا للمعنى، إلا أن الأدبية هنا تستعصي على النقل. ويمكن أن يكون الاستعصاء خاصاً بالمعنى. مثال ذلك قول المتنبي:

ما أجْدرَ الأيَّام واللَّيالي بأن تَقول مَا لهُ ومَالي
لاَ أنْ يكُون هَكذَا مَقالِي فتًى بنيرَانِ الحُرُوب صالِ
منها شَرابي وبهَا اغْتِسالي لا تَخْطرُ الفحْشاء بِبَالي

إن البيت الثالث متوتّرٌ ومثقلٌ بمعنى إضافي. النقل الحرفي إلى الفرنسية لا يضحِّي بالهيكل العروضي وحسب، وهذه خاصية لفظية، بل يضيِّعُ شريحة دلالية هامة. إن الشراب والاغتسال ينتميان إلى نفس حقل المحرم، الشراب هو الشراب الاستمتاعي المحرم، أما الاغتسال فهو اغتسال مما يصيبه من غبار المعارك. إنه يغتسل مما يصيبه من غبار المعركة لا مما تعود الناس الاغتسال بسببه. والدليل على هذا استحضار هذا المعنى قوله إن الفحشاء لا تخطر بباله. إلا أن ذِكر المتنبي للفحشاء التي لا تراوده، يجعلنا نعيد تأويل الاغتسال، باستحضار الاغتسال الذي يبرئ نفسه منه. وعلى الرغم من هذا النفي فهو حاضرٌ في أذهاننا باعتباره مبعداً. ومع هذا الاغتسال المرتبط بالفاحشة، كما تملي التعاليم الدينية، يلون المتنبي الحرب بألوانٍ جنسية. هذه المعاني تغيب في الترجمة. إن هذا بعدٌ ديني ثقافي تاريخي. القارئ الفرنسي لا يمكن بسبب القيود الثقافية من استحضار هذه المعاني. لقد سبق لجورج سْتَايْنرْ أن وضع يديه على هذا البعد في كتابه الممتع **ما بعد بَابِلْ** بقوله:

"هناك أمرٌ واضحٌ: اللغة لا تندرج في الفعل إلا بالاقتران بالزمن. لا وجود لأية صورة دلالية غير زمنية. وحينما نستعمل كلمةً ما فإننا نُحرِّرُ أصداء كل تاريخها السابق. إن نصاً ما هو بصفةٍ دائمةٍ ملتصقٌ بزمنٍ تاريخيّ مُعطَى؛ إنه يتمتع ما يسمِّيه اللغويون البنية الدياكرونية. القراءة الممتلئة هي استعادة الملمحِ الحيِّ في القيم والنوايا حيث تتحرك الكلمة فعليّاً"(10).

يقود التمييز بين الترجمتين الفورية وغير الفورية التي يمكن وصفها بالكتابية لأنها تعامل مع النصوص المكتوبة، إلى تمييز آخر داخل الترجمة الكتابية. هناك شبه اتفاق عام بين المشتغلين بعلوم اللغة حول التمييز بين نوعين من النصوص:

الأول، يعمد إلى استعمال الكلمات بمعانيها الحرفية الثابتة والنافرة من أي ضرب من التعدد الدلالي ومن التزيين الزخرفي أو الجمالي. والنموذج المثالي لهذا الجنس من الكلام هو النصوص العلمية.

والثاني يعمد إلى استخدام كلمات متعددة المعاني وذات مرامي جمالية أو أدبية. والنموذج المثالي لهذا الجنس من الكلام هو الشعر.

تنتظم بين هذين القطبين المتعارضين أنماط من الخطابات التي تميل إلى هذا القطب أو ذاك. من قبيل هذا الوصلات الإشهارية والدعائية والمقالات الصحفية والخطابة السياسية ولغة التدريس في الأقسام الخ. ومع هذا يجب التنبيه على أن هذه تمييزات نظرية ومبدئية، إذ إن الشعر قد ينحط فيصبح قريباً جداً من النثر، والخطاب العلمي قد ينحط فيقترب كثيراً من الشعر. وفي الحالتين يكف الشعر هنا عن أن يكون شعراً بالمعنى الخالص للكلمة ويكف الخطاب العلمي هنا عن أن يكون علماً بالمعنى الخالص للكلمة.

وفي كل الأحوال فإن النصوص العلمية الخالصة تمكن ترجمتها بعفوية متناهية بحيث أنها تقترب وتكاد تتطابق مع الترجمة الفورية؛ في حين أن ترجمة النصوص الشعرية والمتعددة المعاني هي التي تختص بالترجمة بمعناها الحقيقي. بمعنى أن الترجمة تصبح هنا عملاً إشكالياً يتحدى المترجم ويحرجه في كل لحظة وآن. وتنتابه الحيرة والتردد في المقابلات التي يمكن اختيارها للترجمة. بل إن الحديث عن الترجمة يكاد يستبعد بشكل اتفاقي النصوص العلمية؛ الترجمة هي ترجمة نصوص إبداعية وفلسفية. الترجمة هي بالضرورة عمل مربكٌ ومحيِّرٌ. هذا الموقف غير متحقق مع ترجمة النصوص العلمية كالرياضيات والمنطق والفزياء.

وهذه "الإحراجات" أي التعددية الدلالية واحتمالات الاختيارت هي التي تجعل ترجمة نص أدبي واحد قابلاً لترجماتٍ عديدةٍ. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى النصوص العلمية أو شبه العلمية.

ولهذه الأسباب فإن كل الأبحاث التي تخوض في مجال الترجمة إنما تقصد إلى ترجمة النصوص المتعددة الدلالة. وكأن ترجمة النصوص العلمية (نظراً لسهولتها وعفويتها واستلزامها حداً أدنى من الكفاءة اللغوية، ونظراً لأن معجمها مصنوع قائم على توحيد معانيه واستعمالاته في مجالات ومقامات محددة) لا تستحق تسمية ترجمة بمعناها الخاص. هذه الترجمة رغم أنها تستخدم النصوص المكتوبة فإنها أقرب إلى الترجمة الشفوية الفورية.

هذه التوضيحات السابقة المتعلقة بنمطين من الخطاب، الشعري من جهة والعلمي من الجهة الأخرى، وبنمطين من الترجمة، العفوية والكتابية؛ تفرض تقديم توضيح إضافي متعلق بعلم التأويل herméneutique وهو العلم الذي يعتني بالنصوص المتعددة الدلالة مثل الشعر أو ما هو قريب منه، ولا نعرف لعلم التأويل عناية بالنصوص الموحدة الدلالة. فإذا كان موضوع علم التأويل هو النصوص المتعددة المعاني فإن خوضها في مجالات النصوص الموحدة المعنى أمر لا معنى له ولا ضرورة له.

لهذه الأسباب يمكن القول إن علم الترجمة وعلم التأويل يشتغلان بنفس المادة، أي الخطابات المتعددة المعاني. يكمن الفرق بينهما في كون علم التأويل يقف عند حدود تبيان طبيعة وشروط وملابسات الخطاب المتعدد المعاني؛ وفي كون علم الترجمة يتخطى هذا الأمر إلى الوقوف على طبيعة وشروط وملابسات نقل هذه المعاني من لغة إلى أخرى. لهذا لا يستطيع عالم الترجمة أن يتفادى الاستعانة بعلم التأويل. من الضروري للمترجم ولعالم الترجمة الإلمام بمشاكل التأويل وعلم التأويل.

يمكن لأجل التوضيح الاستعانة بالخطاطات التالية لتوضيح العمليات الثلاث التي يتعرض لها النص في حالات ثلاث، وهي حالة الخطاب العلمي الذي ينتفي فيه التأويل وحالة الخطاب المتعدد الدلالة القائم على التأويل وحالة الترجمة التي تستعين بالتأويل لنقل النص إلى لغة أخرى.

أ. توصيل النص العلمي : المتكلم..... النص العلمي..... المخاطب؛

تطابق النص ومعناه عند المتكلم وعند المخاطب

ب. توصيل النص المتعدد المعاني :المتكلم... النص... المخاطب... النص؛

عدم تطابق النص ومعناه عند المتكلم وعند المخاطب؛ كأننا هنا بصدد نصين، نص المتكلم ونص المخاطب.

ج. توصيل النص المترجم : نص المتكلِّم الأصلي....نص" المخاطب...نص" الترجمة.

عدم تطابق مضعَّفٌ أو متكررٌ. إذ علاوة على عدم تطابق نص المتكلم ونص المخاطب هناك عدم تطابق إضافي في النص الذي يصنع في الترجمة انطلاقاً من النص الذي تم تلقيه في المحطة الأولى، أي في لحظة المخاطب.

هذا التعديل أو التغير الذي يطرأ على النص في حالتي التأويل من غير ترجمة والترجمة التي يلازمها بالضرورة التأويل يستحق التفسير. إن ذلك مترتب عن كون الإنسان في هذه العملية وفي هذا الجنس من الخطابات لا يكون حيادياً. إن معارفه وموقعه الاجتماعي وانتظاراته وأحواله النفسية ومعتقداته ومكان وزمن التلقي كلها اعتبارات مؤثرة في تأويل النص وفي ترجمته. وليس الأمر كذلك في الخطابات العلمية. فأن يقول المتكلم "أيام الأسبوع سبعةٌ" هي عبارة متطابقة عند الباث وعند المتلقي. فلا مجال لتدخل الاعتبارات السابقة في النص ومعناه.

الواقع أن النص الذي نُقْدِمُ على ترجمته هو مجال تتنازعه عدة ذوات هي بطبيعتها غير حيادية. ذات المتكلم ونواياه وذات المخاطب التي تتحول إلى متكلم ثان وهي تبث نص الترجمة وذات متلقي الترجمة. هذه الذوات كلها مؤثرة وفاعلة في النص، وفي كل محطة من محطات العملية التواصلية يخضع النص لتحولات قد تكون عميقة بضياع بعض معانيه واكتساب أخرى وخفوت بعضها وبروز أخرى كانت في الأصل خافتة.

كل هذه الاعتبارات يصعب ضبطها بسبب تدخلات الذوات الآنفة الذكر. وهذا ما جعل بعض الباحثين يقولون إن الترجمة بسبب بعدها عن الموضوعية لن ترق أبداً إلى مستوى العلم. وسيظل عملها تقريبياً أبداً. فمهما اقتربت من المعنى الذي يعتقد أنه أصل فلن نستطيع الجزم أبداً بأننا قد ألقينا القبض على نفس المعنى القابع في ذهن المتكلم أو المرسل. وهذا الأمر يبرر عند البعض اعتبار الترجمة، أو جانب منها، فناً لا علماً خالصاً.

في هذا الإطار الأخير، نريد التوقف عند مستوى من مستويات القصور اللغوي الذي يلازم، بشكلٍ نسبيٍّ كلَّ اللغات. هذا القصور أجناس، منها المعجمي والصرفي والأسلوبي والاصطلاحي والثقافي، الخ. نريد التوقف هنا عند حالة القصور المعجمي. إن فقر المعجم يدفعنا إلى الاستعانة باختيارات متأرجحة بين: الترجمة المباشرة أو الحرفية التي ترتكز على **الدخيل والمقترض والنسخ**(11). والترجمة غير المباشرة التي تقوم على **التصريف والتعديل والتكافؤ والتناسب**(12).

الترجمة المباشرة :

أ. **الدخيل.** هو أن نعمد إلى استقبال كلمات أجنبية دون أن نخضعها لأي ضرب من التعديل الموافق لهياكل اللغة الهدف، من الناحيتين الصوتية والصرفية.

هذه الكلمات التي تند عن التطويع المحلي تسمى الدَّخِيل. وكان العرب يسمونها الأعجمي كما كان اليونان يدعونها "بربر" تشبيهاً لكلام الأغيار بأصوات العجماوات. ويتعارض لفظ بربر عند اليونان مع هِيلِينِيسْمُوسْ أي امتثال الكلام لكل الملامح الدالة على أن المتكلم يوناني قح ويتحدث اليونانية سليقة. إلا أننا ينبغي أن نلاحظ أن الحدود بين الدخيل والمقترض ليست واضحة دائماً. من أمثلة الدخيل وهو كثير في العربية، كومبيوتر وباكالوريا وأوطيل وفِيزَا وأوزون وتراموای وبَاصْ الخ.

يمكن أن يؤول **الدخيل** إلى التَّوطُّن والألفة لكي يصبح من **الاقتراض.** بل إن الكلمات المقترضة قديماً المدمجة في المعجم والمتحولة إلى خدمة اللغة قد فقدت صفة المقترض. فمن يتصور أن "صراط" كلمة لاتينية الأصل وأن "الشيك" في اللغات الغربية كلمة عربية الأصل، إنه الصِّكّ، حسب رواية المستشرق جُوزِيفْ شَاختْ(13). ولهذا أيضاً لا يمكن الحديث عن الدخيل دون الخوض في مجال المقترض. وهذا يمكن أن نلاحظه عند باحثين مشهورين في الميدان:

"إن ما يهم المترجمَ هو الكلمات المقترضة الجديدة وبالخصوص المقترضات الشخصية. ينبغي أن نلاحظ أن المقترض يدخل في الغالب إلى لغة ما عبر قناة الترجمة، شأن ذلك شأن المقترض الدلالي أو المشترك اللفظي(14) الذين ينبغي أن نحذر منهما بعناية"(15).

الاقتراض. يتحقق الاقتراض حينما يتم تطويع الكلمة الوافدة للقواعد الصوتية والصرفية للغة المستقبلة أو المضيفة. مثال ذلك التلفاز والسينما والفوتوغرافيا والجغرافيا والميتولوجيا الخ.

تتمتع ظاهرة الاقتراض أو الدخيل عند بعض الصفائيين في كل اللغات بسمعة سيئة. إنهم يعتبرونها أعراضَ مرضٍ أو ضعفٍ واعتلالٍ، في حين أن العكس هو الصحيح.

فلنستمع إلى العلامة اللغوي جُونْ لَايَنْسْ وهو يتحدث عن ظاهرة الاقتراض اللغوي: "من المعروف جداً بأن اللغات التي تترابط جغرافياً أو ثقافياً تتبادل الكلمات. الكلمات نزاعة إلى تخطي الحدود الجغرافية واللغوية في نفس الآن الذي تقدم على ذلك الأشياء أو العادات التي تصفها"(16).

إن طبيعة اللغة هي التعدد لا التوحد. يقول مَارْيُو بَانْدرُوسْكَا: "إن اللغة، شأنها شأن الحياة، متسمة بالنقص وغير خالصة. إننا نحن الآدميين متسمون بملكة اكتساب التعدد اللغوي. ولهذا أمكننا أن

نترجم من لغة إلى أخرى. إننا نترجم باستمرار داخل لغتنا الخاصة، لغة أمهاتنا. وحينما نتأمل ماضينا، نتأكد بأنه حيث توجد لغة إنسانية توجد أيضاً الترجمة"(17).

إن الدواعي التي تدفع إلى استعمال الدخيل عديدة نذكر منها الحاجات التقنية والاختلافات الثقافية. إن الآلات الحديثة حينما تستورد تأتي مصحوبة بتسمياتها. وحينما نتحدث عن ظواهر لا توجد في ثقافتنا نتحدث عنها بتسمياتها الأجنبية. مثال ذلك، بيتزا وسباغيتي ومكارونة وبايا وبَالي وسمفونيا الخ.

والواقع أن هذه التعديلات، ومهما كانت خفيفة محصورة، ولو في إبطال نبر أو تفخيم حرف، كافية لكي تنقل اللفظ من مستوى الدخيل إلى مستوى الاقتراض. وواضح أن اللغويين كثيراً ما أشاروا إلى أن الدخيل هو مرحلة مؤقتة لكي يتحول اللفظ فيتم هضمه في نظام اللغة المستقبلة فيكتسب بذلك صفة المواطنة ويدخل من الباب الواسع لكي يتبوأ مكاناً إلى جانب الأصيل اللغوي. بعبارة أخرى تقبل الكلمات الدخيلة نظام وقانون اللغة الحاضنة. ومع مرور الأيام والسنين تنطمس الهوية الأصلية لهذه الكلمات التي ابتدأت دخيلاً ثم غدت من المقترض لكي تصبح في النهاية من الأصول. يقول فَالِينتِينْ كَارْسِيَا بِيْرَا:

"يتم التمييز أحياناً بين "الدخيل" و"المقترض". تعتبر الكلمة من "الدخيل" تلك التي يتم قبولها تماماً كما هي في أصلها الذي صدرت عنه دون أي تطويع للغة التي تستقبلها. إن المقترض هو حسب هذا التمييز قد يكون هو الدخيل المَوَطَّنُ الذي تم تطويعه للنسق اللغوي الذي يستقبله"(18).

النسخ. النَّسخ هو شكل من الترجمة الحرفية التي تحترم إلى أقصى الحدود حرفية النص الأصلي. ولذلك يُدعى أيضاً "الدخيل الخفي". على أن النَّسخ الذي يجسد حالة مثالية للترجمة الدقيقة خاصة في الخطاب العلمي قد يكون مثار السخرية والتعتيم إذا تقيدنا به كما في مثال من الإسبانية suspendido الذي نترجمه على سبيل النَّسخ بمعلق. ولاحظ أيضاً لو عمدنا على طريق النسخ إلى ترجمة بُوبِيتِيكِي اليونانية بـــ صناعية.

قد يكون النَّسخ تركيبياً. كما نلاحظ في المثال aller et retour . إن النَّسخ هو نوع من الترجمة الحرفية. وكذلك نقول إن football الإسبانية هي من الدخيل من الإنجليزية في حين أن futbol هي من الاقتراض منها، أما العبارة ballonpied، أي كرة القدم، فهي من النَّسخ.

والواقع أن المترجم يقترب أكثر، في حال **الاقتراض**، من اللون المحلي الذي يعرضه النص المترجم. ويكون هذا الاقتراب أقوى وقد يكون صادماً في حال استخدام الدخيل، أو ما يسميه غارسِيَا

يِيرْا **الأغْرابِية** extrangerismo. وهذا معنى ج. ب. بِينَايْ و ج. دَارْبِيلْنِيتْ: "إن الإيحاء باللون المحلي الذي يوحي به المقترض هو أمر يخص الآثار الأسلوبية كما يخص تبعاً لذلك الرسالة"(19).

وعلى الرغم من نفور كثير من الباحثين من اللجوء إلى الدخيل بسبب جموحه أمام محاولات تطويعه للهياكل اللغوية، الصرفية خاصة، للغة المستقبِلة، فإنهم أكثر تسامحاً في الاستعانة بالمقترض الذي يعتبرونه سلوكاً طبيعياً في اللغة إذا أحسن استعماله.

وهكذا فإذا كان الدخيل تعبيراً عن القصور فإن الاقتراض دليل على مرونة اللغة واعتدالها وحسن ضيافتها واستقبالها وأداة أساسية لإغنائها وإثرائها بالجديد. يقول أحد المختصين في مجال الترجمة إلى الباسكية: "ينبغي تمثل ما يأتي من الخارج، لا يمكن لأي كان أن يتغذى من نفس جسده، لأن ذلك مؤذ"(20). بل وأحياناً مُمِيتُ.

ويقول شْلَايِيرْماخِرْ: "إن الوحدات اللغوية تستأنف الحياةَ وتثمر في لغة أخرى، بعد انتزاعها من مجالها اللغوي الأصلي، وبعد غرسها في نظام لغوي آخر"(21).

الحرفية. يمكن أن نضيف إلى التقنيات السابقة ذلك النوع الطبيعي والأكثر تداولا الذي يمكن نعته بالحرفية، حيث نضع على سبيل المثال مقابل rose, désert, ami, et arbre وردة وصحراء وصديق وشجرة.

تعتبر التقنيات السابقة **الدخيل والاقتراض والنَّسخ والحرفية** من الآليات المباشرة في الترجمة. إلا أن هناك تقنيات أخرى تكتسي أهمية كبرى وتعتبر الملمح المميز الأساسي للترجمة. وتدعى هذه التقنيات التي سنعرضها في ما يلي بالترجمة غير المباشرة.

الترجمة غير المباشرة

تعتبر الوسائل السابقة في الترجمة مُباشِرةً directes. إلا أن هذه تقابلها تقنيات أخرى تدعى غير مباشرة obliques . يدرج ج. ب. بِينَايْ و ج. دَارْبِيلْنِيتْ ضمن هذه الفئة الأخيرة الترجمة **بالتصريف وبالتعديل وبالتكافؤ وبالتناسب**(22).

"**التصريف** transposition هو تعويض كلمة أو عبارة في نص اللغة المنطلق بكلمة أو عبارة في نص لغة الهدف تحتفظ بالمعنى؛ إلا أنها **لا تحتفظ بالفئة الصرفية أو الوظيفة التركيبية**.

وهذا الإجراء يعتمد في الحالات التي لا يتوفر فيها المترجم في لغة الهدف على المقابل المناسب الشكلي للفظ أو مركب في اللغة المنطلق. فبدلاً من ترجمة اسم باسم وفعل بفعل ومبتدإ بمبتدإ وفضلة

[نعت أو حال أو تمييز] بفضلة، يضطر المترجم إلى تصريف المحتوى الدلالي لفئة نحوية إلى أخرى، بدون أن يترتب على ذلك أي مساس بالمعنى"(23). نترجم العبارة الفرنسية : j'ai mal au cœur بالصيغة العربية "يؤلمني قلبي". كما أترجم العبارة الفرنسية: Le professeur est venu seul بالصيغة "جاء الأستاذ وحده".

"**التعديل** modulation. هو تغيرٌ يطال الرسالة، وهو يحصل بتغيير زاوية الرؤية. ومبرر هذا يعود إلى أننا حينما نرى الترجمة الحرفية أو حتى التي لحقها التصريف يترتب عنها قول سليم من الناحية النحوية إلا أنه غير متناغم مع أصالة اللغة الهدف"(24). نلجأ هنا إلى استبدال الجملة الإنشائية بالخبرية مثلاً أو العكس. أو أن نستبدل الاستفهام بالتأكيد الخ.

فإذا كان التصريف يتعلق بتغيير اللفظ أو الفئات النحوية والصرفية فإن التعديل يمس المعنى في حرفيته إلا أنه يسعى في النهاية إلى الحرص على الاحتفاظ بالأثر المطلوب حصوله في المتلقِّي.

ومن **الترادف** équivalence : في الترادف نعوض كل العبارات المأثورة بعبارات مأثورة تناظرها، أي لها نفس الأثر المعنوي، أو الوظيفة.

"ينبغي للصيغ الجاهزة أو المأثورة أن تعوض في الترجمة بالصيغ والعبارات الجاهزة التي تنجز وظيفة تعادلها، لأننا بترجمتها ترجمة حرفية تبعث أثراً مغايراً للأثر المقصود في الأصل"(25).

التناسب adaptation. لقد التجأنا في الحالات السابقة إلى استبدال المقولات النحوية أو الصرفية (التصريف) والمقولات الفكرية (التعديل) والعبارات المركبة (الترادف)، إلا أننا لم نكن نغير نهائياً "سياق" الفعل التواصلي. "إلا أنه يمكن أن توجد في اللغة المصدر أو الأصل مواقف تواصلية ليست مستساغة أو لا يمكن تصورها ـــ أو يصعب فهمها ـــ في السياق الثقافي للغة الهدف. في مثل هذه الحالات وفي نطاق قابلية الترجمة ينصح بِينَاي دَارْبِيلْنِيتْ باللجوء إلى **التناسب أو التطويع**، وهو عبارة عن استبدال الموقف [أو المشهد] القائم في اللغة المصدر بموقف مناظر في اللغة الهدف أو الأقل بعداً عن ذلك"(26). ومن هذا القبيل إن عبارة في رواية عائلية يابانية تحكي عن أب عطوف عائد من سفر طويل يستقبل ابنه بتقبيله في فمه. يؤدي هذا المشهد عندنا معنى مستفزاً في عين القارئ المغربي مثلاً. ولهذا ينصح ج. دَارْبِيلْنِيتْ باستبدال هذه العبارة بالقول: لقد عانق الأب ابنه بِحنُوٍّ. هذه العبارة الأخيرة يمكن أن تؤدي نفس الغرض أو الوظيفة التواصلية الذي تؤديه في الأصل العبارة اليابانية. وهذا الإجراء يتماشى مع الرأي الذاهب إلى أن الترجمة ينبغي أن تبعث الإحساس بأننا لسنا بصدد نص

مترجم ولكن مكتوب أصلاً بهذه اللغة التي نترجم إليها. ورغم ذلك فمن المشروع القول: إننا في هذه الحالة نفقد الكثير من النكهة المحلية التي تكون هي أيضاً هامة في النصوص الأدبية الرفيعة.

إن هاتين المجموعتين من تقنيات الترجمة هما من أهم الأدوات التي اهتم بها الباحثون. إن المجموعة الأولى أي **الدخيل والمقترض والنسخ، كثيراً ما صنفت ضمن مقومات الترجمة المباشرة،** وهي تتسم بإضفاء طابع الغرابة أو الأجنبي على نص الترجمة؛ كأني بها تعمل على إحضار الآخر الأجنبي في نص اللغة الهدف، أو اللغة المستقبلة. إن استعمال كلمة "تلفون" توحي بالطابع الأجنبي للكلمة، في حين أن استعمال "هاتف" تخفف إن لم نقل تبطل هذه الإيحاءات الأجنبية.

المجموعة الثانية من المقومات هي **التصريف والتعديل والترادف والتناسب،** كثيراً ما صنفها الباحثون بأنها مقومات الترجمة غير المباشرة، وهي على العكس من السابقة، تتسم بحجب صورة الآخر وإيهام القارئ أن النص غير مترجم بل مكتوب أصلاً بلغة الهدف أو الوصول. فحينما يعرض نص مترجم تبادل التحية بين رجل وامرأة، وحيث تتم التحية بتناول الرجل يد المرأة بالتقبيل، حينما نقرأ بالعربية هذا المشهد نشعر أننا في عالم غريب عنا نحن الذين نعيش في المجتمعات الإسلامية؛ وأن المشهد يجري في بيئة غير بيئتنا. إلا أن المترجم يمكنه أن يبطل هذا الإحساس فيعوض تقبيل اليد بمجرد تبادل الابتسام وانحناءة خفيفة للرأس. هنا نحس أن النص قريب منا وليس أجنبياً. إن وظيفة هذه المجموعة الثانية من التقنيات هي التخفيف من حضور العنصر الأجنبي.

يسمى المترجمون الذي يشددون على الالتزام باستعمال المجموعة الأولى **بالمصدريين** sourciers ويسمى المترجمون الملتزمون بالمجموعة الثانية من التقنيتين **بالغائيين** ciblistes .

لقد انتشر وذاع الرأي الزاعم أن الترجمة الجيدة هي التي نقرؤها ولا نحسُّ بأننا أمام نص مترجَم، بل يتكون لدينا الوهم بأننا أمام نص كتب بهذه اللغة المترجِمة. والحقيقة أن كاتب هذه المقالة يزعم أن ذلك يعتبر عيباً، بل خيانة، وفضيحة، إذ ما الداعي إلى الترجمة إذا لم تكن هذه تجرُّني جراً إلى النزول ضيفاً على الآخر وعاداته وثقاته وأساليبه في الأدب والحياة، أي لما يسمِّيه شلَايِرْ ماخِيرْ "الاستضافة المتبادلة"(27). والواقع أن هذه مسألة فيها خلاف كبير ولنذكِّرْ هنا ببعض المواقف.

يذهب الأديب الألماني الكبير يُوهَانْ وُولْفْكَانْكْ جُوتْ Goethe إلى وصف هذين الموقفين بعبارته: "هناك عبارتان مأثورتان بشأن الترجمة: تتطلب إحداهما مجيء مؤلف وطن أجنبي نحونا بحيث نتمكن من اعتباره منا. وتتطلب العبارة الأخرى، عكس ذلك، أن نقصد الأجنبي بغاية أن نضع أنفسنا موضعه، ولغته وخصائصه"(28).

ويؤكّد شْلَايِيرْ مَاخِيرْ قبل جُوتْ نفس الرأي في قوله:

"يختار المترجم بين أمرين؛ فهو إما أن يترك المؤلف في سكينة تامة ما أمكن ذلك ويدفع القارئ للتوجه نحوه ولقائه، وإما أن يترك القارئ في سكينة تامة ما أمكن ذلك ويدفع الكاتب نحوه للقائه"(29).

يعمد الفيلسوف الإسباني خُوسِي أُورتِجَا إيْ جاسِيتْ إلى هذين الموقفين فيختار أحدهما فيذهب إلى "أن الأمر الحاسم هو أنه ينبغي خلال الترجمة أن نحاول الخروج من لغتنا ونتوجَّهَ إلى لغات غيرنا، وليس العكس كما اعتاد الناس أن يفعلوا"(30).

هي هذه حدود الترجمة وأهم تقنياتها. إلا أن هذه المقال لا يتطلع إلى أكثر من رسم خارطة بحدودٍ، تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، حدودٍ ذات فجوات كثيرة، وداخل هذه الحدود تعيش بعض الكائنات التي ينبغي تعهدها والعناية بها، من قبيل مسألة التعويض الجمالي لنص أقلَّ جماليةً من الترجمة. وكذلك هناك الغائب، بل الغائبة الكبيرة، أي الاستعارة، فكيف تمكن ترجمتها. وهناك أيضاً، مسألة ترجمة المعاني أم ترجمة الألفاظ، أي كيف يمكن إبدال إيقاع في لغة بإيقاع في لغةٍ أخرى، وهناك أيضاً ترجمة المعاني أم ترجمة الوظائف المقامية، وهناك أيضاً تلك العلاقة الحميمية والعدوانية في آن بين المترجم والمعاجم التي كثيراً ما كانت خير معين، إلا أن خيبات الأمل المتولّدة عن استشاراتها أمر كثيراً ما فاقم إحراجات المترجم ودفعت به إلى ركوب المغامرات الجميلة لحل معضلات قائمة.

1- Mario Wandruszka, Interlenguidtica. Esbozo para una nueva ciencia del lenguaje, ed Gredos, Madrid, 1980. p. 10

2- Georges Steiner, Après Babel, Bibliothèque Albin Michel des idées, Paris,1978. p.437

3- Georges Steiner, Après Babel, Bibliothèque Albin Michel des idées, Paris,1978. pp. 365.

4- J René Ladmiral : Traduire, théorème pour la traduction éd Payot Paris 1979, p.11

5- Eugene Nida, Sobre la traduccion, Madrid, ed. Catedra, 2012. P. 283

6- Roman Jakobson, Essais de linguistique générale, ed Minuit, 1963, p. 79

7- Friedrich Schleiermacher, Des différentes méthodes du traduire, éd. du seuil,1999, pp. 33-35

8- شْلَايِيرْمَاخِيرْ "هكذا فإن المترجم للمقالات الصحفية أو للنصوص الوصفية المبتذلة للرحلات يقترب كثيراً من المترجم الفوري، ويمكن أن يبدو عمله مضحكاً إذا كانت له تطلعات كبيرة يسعى بها إلى اكتساب اعتباره من الفنانين" Ibid, p. 35

9- Des différentes méthodes du traduire, p. 39

10- Georges Steiner, Après Babel, Bibliothèque Albin Michel des idées, Paris,1978. p. 3

11- étranger, emprunt, calque et paraphrase.

12- adaptation. équivalence et modulation, transposition,

13- جوزيف شاخت، "الشريعة الإسلامية"، في شاخت (منسِّق)، **تراث الإسلام**، القسم الثالث، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979. ص. 27

14- les faux amis

15- J. P. Vinay, J. Darbelnet, Stylistique comparée du Français et de l'Anglais, éd. Didier, Paris, 1977, p.47

16- John Lyons, Linguistique générale, éd. Larousse, 1970, p. 23)

17- Mario Wandruszka, Interlinguistica, ed, Gredos, Madrid, 1980, p.p. 10-11

18- 4 Valentin Garcia Yebra, Teoria y practica de la traduccio, ed. Gredos, Madrid, p. 33

19- J. P. Vinay, J. Darbelnet, Stylistique comparée du Français et de l'Anglais, ed. Didier, 1977, p.47

20- Xabier Mendiguren Berenziartu, «Développement de la traduction en langue basque», in. SENEZ**,** Itzulpen Aldizkaria, n. 24, 2002. p. 14

21- Friedrich Schleiermacher, Des différentes méthodes du traduire, éd. Seuil, col. Points, Paris, 1999, p. 138

22- adaptation équivalence et modulation, transposition,

23- Esteban Torre, Teoria de la traduccion literaria, Editorial Sintesis, Madrid, 1994, p. 127.

24- J. P. Vinay, J. Darbelnet, Stylistique comparée du Français et de l'Anglais, ed. Didier, 1977, p. 51

25- Charles R. Taber, «Traduire le sens, traduire le style », in. La traduction, langages, n. 28, p. 61 décembre, 1972,

26- Esteban Torre, Teoria de la traduccion literaria, Editorial Sintesis, Madrid, 1994, pp. 130 – 131.

27- antoine Berman, in, Friedrich Schleiermacher, Des différentes méthodes du traduire, éd. Seuil, 1999, p. 23

28- Friedrich Schleiermacher, Des différentes méthodes du traduire, éd. Seuil, 1999, p. 140

29- Friedrich Schleiermacher, Des différentes méthodes du traduire, ed. Seuil, 1999, p.19. .

30- Jose Ortega y Gasset, Miseria y esplendor de la traduccion, p. 52. النسخة معروضة في الأنترنيت.

صدر حديثا للأستاذ محمد الولي